البلاطُ والمجتمع الإسلاميّ وعلم التاريخ:
دراسة في سيسيولوجيا الكتابةِ التاريخيّةِ عند المسلمين

قراءة:
نصير الكعبيّ

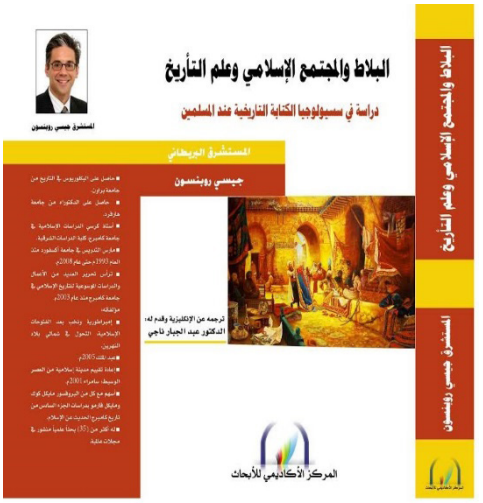

ينتمي مؤلّف الكتاب إلى مدرسة الاستشراق النقدي المعاصر التي تمثّله باتريشيا كرونه، ومايكل كوك، فقد أخضعا العديد من حوادثِ التاريخ الإسلاميّة للدراسةِ من جديدٍ وقدما فيها آراءً ربّما يكون بعضها مثيراً وجديداً لما استقرّ عليه الاستشراق التقليدي والنمطي. فهذا التيار نفى كثيراً من الثوابت، وأثبت أخرى اعتماداً على حزمةٍ متعاضدةٍ من منهجيات التفكيك والتأويل واللسانيات، أسهمتْ في محصلتها النهائية في إعادة حراثة العديد من الموضوعات من جديد.

وإجمالاً يُشكّل البحث في موضوعِ تاريخ التاريخ أو تطوّر فكرةِ التاريخ عند المسلمين قاعدةً ضروريّةً ومقدّمة أساسيّة لاستيعاب

الفلسفة الناظمة لنسيج الروايات المتنافرة أحياناً، وميولها، والتواريخ المتعددة المنتجة في أثناءِ مراحل التاريخ الإسلامي، فيبدو أن أهميتها في مجالِ الاستشراق جاءتْ بعد مرحلة البيبلوغرافيا، وتحقيق النصوص ونشرها، وهي تكادُ تدخلُ ضمن مقدمّات وآليات نقد النصوص وغربلتها وتعرّف مراحلها التكوينيّة، ومنابتها الأولى والكشف عن إعادة الإنتاج المزمن الذي تعرضتْ له؛ ولذلك أصبحت ضمن الاشتراطات المتوافق عليها منهجياً في مجملِ الأبحاث والدراسات الاستشراقيّة المتناولة للتاريخ الإسلامي، فتخصص لهذهِ المهمّة الديباجة أو الفصول الأولى التي تعدّ من أعقدِ وربّما أهم مفاصل تلك الأبحاث، لوفرتِ الاجتهادات، وتنوعها موازنة بدراساتٍ أخرى خصّت موضوعات متقاربة، فضلاً عن قدرةِ تلك المقدمّات على تهيأة محيطٍ واعٍ ومدركٍ لنسلِ الروايات وجذورها بما يرتبطُ بعيّنات الدراسة.

وتتوازى في هذا الميدان حالياً ثلاث أعمالٍ استشراقيّة تتقارب بعضها مع بعضها الآخر في معالجةِ علمِ التاريخ الإسلامي، وربّما يتقدّمها في الشهرةِ والسَبق كتاب المستشرق روزنثال (**علم التاريخ عند المسلمين**) الصادر في عام 1965م الذي يلحظُ على كتابةِ تأكيدٍ واضحٍ على المنهج التوصيفيّ والمسحيّ في استيعاب تشكّل الكتابةِ التاريخيّة الإسلاميّة فقد أكدّ على عنصرِ الصورةِ الذي سعتْ تلك المصنفات على اختلافِ مشاربها ومرجعيتها على تقديمها وترويجها. فيما اعتمد ظريف الخالدي في كتابه (**الفكر التاريخي العربي في المرحلة الكلاسيكية**) الصادر من جامعةِ كامبريدج في عام 1995م، على المنهجِ التفسيري، والتعليلي، والتركيز بشكلٍ كبيرٍ على المراحل التطوريّة التي مرّ بها هذا العلم من بدايةِ نشوئهِ المتواضع الملازم لظهورِ الإسلام وحتى ذروتهِ في القرنِ التاسع الهجري عند ابن خلدون فيما يعدّ كتاب المستشرق الأمريكي فريد دونر (**روايات من أصول إسلامية: بداية الكتابة التاريخية الإسلامية**) آخر تلك المجموعة والصادر في العام 1998م، ففي الكتابِ منهجٌ تحليليّ اعتمد على متابعةِ العلوم الأخرى المسهمة في بلورةِ علمِ التاريخ الإسلامي، ولاسيّما العلوم الشريعة التي يأتي في مقدّمتها علم الحديث مع تقديمه لعرضٍ نقديّ، وتصنيفي عميق لتداول هذا الموضوع في الدراسات الإستشراقية الآنفة.

فيما افتتح كتاب (**البلاط والمجتمع الإسلامي وعلم التاريخ: دراسة في سسيولوجيا الكتابة التاريخية عند المسلمين**) حقلاً جديداً في تناولِ علم التاريخي الإسلاميّ، فهو ينتمي إلى صنف البحوث السَسيولوجيّة في متابعةِ نشأة علم التاريخ الإسلامي وتطوره إذ ركز على الفواعل الاجتماعية وآثارها المباشرة والبعيدة على فكرةِ التدوين التاريخي، وعلم التاريخ الإسلامي، فقد صاغ المؤلّف أسئلته الجوهريّة ضمن أفق تلك المنطلقات. فالكتابُ يعدُّ محاولةً جادّةً ومبتكرة – إلى حدٍّ كبير – في متابعةِ السياقات، والظروف الاجتماعية الحاكمةً والمحيطة بالمؤرّخ، ومنزلته العلميّة فيرى المؤلّف أن هذه المركبات الاجتماعية ذات فاعليّة كبيرة

في ترسيخ نمطٍ محددٍ ومعين من الكتابةّ التاريخيّة على مستوى المنهجِ والرؤية والمطالب المنتخبة للمعالجةِ. فقد أولى عنايةً كبيرةً لأيديولوجيا العصر ومضاعفاتها على توجيه الكتابة التاريخيّة، فقد تابع على سبيلِ المثال النشأة الأسريّة والمدرسيّة ومفاهيم الشريعة، والدين الجديد وآثارها على المؤرّخ في صياغةِ ملامح تفكيره وتوجهه، فالكثير من التصورات والصور المكوّنة عن الذاتِ والآخر مستندة إلى تلك القواعد غير المرئية أحياناً.

وقد خصّ الكتاب في معالجاته مسألة الشفاهيّة والروايـة التاريخيّـة بوصفها من العناصر الحيويّة ذات الجدارة في متابعة تطوّر علم التاريخ الإسلامي في المرحلةِ الجنينيّة من الإسلام حيث البداوة والنظام القبليّ بوصفهما عناصر مهيمنة على حركة علم التاريخ،إذ ربطت الدراسة بطريقة عضويّة بين النظام القبليّ الرعوي بوصفهِ نظاماً اجتماعيّاً، وبين تطوّر علم التاريخ على مستوياتهِ الأفقيّة والعموديّة، فشخّصتَ ملائمة بين التاريخ الشفويّ للفرد القبليّ الرعوي في بناءِ هويتهِ المجتمعية، فالتاريخ الشفويّ تاريخ متحرّك وديناميكي يكون حينما يُريده المجتمع، بخلافِ التاريخ النظامي المدوّن الذي تنتابه أساليب الكبح والتحريم والحجب ونمطيّة في معلوماتهِ، لاسيّما وأن هذا التحوّل قد اسهمتْ بهِ بشكلٍ كبيرٍ البيروقراطيّة وتطوّراتها المتلاحقة في الأرشفةِ والتسجيل مما يعني خضوعه بطريقةٍ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرة إلى ايدولوجيا السلطة الحاكمةٍ أو السياق الضاغط .

وعالجت العديد من فصولِ الكتابِ ظاهرة المقدّس بوصفه معبوداً اجتماعيّاً وتأثيراتها على علم التاريخ الإسلامي، فمركز الله في التاريخ، شكّل أحَد أبرز المؤثّرات في إخراجِ الصورِ والنتائج العامّة لمجملِ المرويات على مختلَفِ صنوفها، ووقد وازن المؤلّفَ كثيراً بين فكرةِ اللـه، ودوره في المسيحية مع دورهِ في الإسلام لاسيّما في موقفهما من حركة الزمنِ الدوري والخطّي. لكن تبقى الدارسة تواجه تحدياتٍ حقيقيّة، فقد رفع المؤلّف الكثير من الحالاتِ والممارسات الفرديّة إلى مستوى النظام العام الذي بنى على ضوئهِ مفاهيم ومفاتيح رئيسة لاستيعاب صيرورة علم التاريخ الإسلامي ضمن سياقهِ الاجتماعي المتحوّل، فإن تحوّيل الخاص إلى عام قد يحتاجُ للكثير من التريّث، فالفجوات والقطيعة تبقى باستمرار أحد أهم سمات دراسة العلوم الإنسانيّة.